مفهوم الشعر بين جماعة الديوان وجمال الدين بن الشيخ

The concept of poetry between the Al-Diwan group and Jamal Al-Din bin Al-Sheikh

عبد الحميد معيفي*
جامعة الشاذلي بن جديد، الطارف hamidmaifi17@gmail.com
حشلافي لخضر
جامعة زيان عاشور، الجلفة hamidmaifi17@gmail.com

تاريخ الاستلام: ../../2022 تاريخ القبول: ../../2022 تاريخ النشر: ../../2022

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى مناقشة التساؤلات النقدية التي أثارها مصطلح الشعر، وما يتعلق به من مفاهيم نقدية، ومقولات نظرية كبرى في الدرس النقدي العربي، وبحث الآليات التي اعتمدها النقاد العرب في الإحاطة بمفهومه، ومقارنتها بما ورد في الدراسات النقدية الغربية، ودراستنا هاته تعول على استقراء المتون النقدية لجماعة الديوان، ومقارنتها بالأسس النقدية لمصطلح الشعر التي وضعها الناقد جمال الدين بن الشيخ، فما هي مقومات الشعر والشعرية لدى جماعة الديوان؟ وما هي مرتكزاتهما لدى جمال الدين بن الشيخ؟ وماهي نقاط التقاطع بين جماعة الديوان وجمال الدين بن الشيخ في التأسيس لمفهوم الشعر؟ وإلى أي مدى أستطاعوا أن يتمثلوا مفاهيم الشعر والشعرية في المعالجة النقدية الغربية؟

الكلمات المفتاحية: الشعر؛ جماعة الديوان؛ بن الشيخ؛ الخيال؛ الشعرية.

Abstract :

This study aims to discuss the critical questions raised by the term poetry, and related critical concepts, and major theoretical statements in the Arab critical lesson, and discuss the mechanisms adopted by Arab critics in understanding its concept, and comparing them with what was mentioned in Western critical studies, and our study relies on extrapolation The critical texts of the Al-Diwan group, and their comparison with the monetary foundations of the term poetry developed by the critic Jamal Al-Din bin Al-Sheikh. What are their foundations for Jamal al-Din ibn al-Sheikh? What are the points of intersection between the Diwan group and Jamal Al-Din Bin Al-Sheikh in establishing the concept of poetry? To what extent were they able to represent the concepts of poetry and poetics in Western critical treatment?

*المؤلف المرسل

Keywords: poetry; Diwan group; bin Sheikh; imagination; poetics

1- مقدمة:

أثار مصطلح الشعر جدلا واسعا في الدراسات النقدية الغربية والعربية، إذ اجتهد النقاد في وضع المفاهيم والأسس والمعايير الكبرى له، وانتخبوا له من الفن الإبداعي ما يوضح مقاصدهم النقدية لمفهوم الشعر، وإذا كان هذا المصطلح وليد الدراسات النقدية الغربية مع تزفيطن تدوروف، ورومان جاكبسون وغيرهم من الغربين، فإن للنقاد العرب في العصر الحديث أيضا وجهات نظر علمية ودقيقة تعنى بالشعر ومقوماته، ولعل البحث في المدارس النقدية الأدبية العربية يمكننا أن نستشف الاهتمام الكبير بالشعر، وخاصة مع جماعة الديوان التي كان يقودها المازني والعقاد وشكري، ثم أن هناك دراسات نقدية عربية عريقة، كان له السبق في وضع الشعرية في إطارها المنهجي ، ونقصد بذلك دراسة جمال الدين بن الشيخ في مؤلفه الذي كتبه بالغة الفرنسية " Poétique Arab"، والمترجم من طرف مبارك حنون ومحمد الوالي ومحمد الأوراغ إلى "الشعرية العربية" ، حيث استطاع بن الشيخ أن يتلمس مواطن الحس الجمالي للشعرية العربية، وأبان عن مكنوناتها الإبداعية، ومصادرها الفنية.

2- تمظهرات الشعر الفنية لدى جماعة الديوان:

2. 1- جماعة الديوان:

سميت بهذا الاسم (مدرسة الديوان أو جماعة الديوان)؛ لأنها متكونة من ثلاثة أعلام كبيرة؛ وهم عبد الرحمن شكري، وعباس العقاد، وإبراهيم المازني، ويعد هؤلاء نقادا وشعراء في الوقت نفسه، ألّفوا العديد من الكتب والدواوين الشعرية، و مالوا إلى النقد باعتباره المقوم الأساس في العملية الإبداعية (الشعرية و النثرية)، وجماعة الديوان أو الديوانيين هي حركة تجديدية في الشعر العربي، أطلقت تسميتهم بجماعة الديوان بسبب مؤلف نقدي اشترك فيه المازني والعقاد تحت عنوان " الديوان"، ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين، نظم أعضاء ثلاثة قد سبق ذكرها وكلمة ديوان تعود إلى كاتب (الديوان في الأدب والنقد)، الذي يعد سلسلة أجزاء أدبية ونقدية من وضع الأدبيين المازني والعقاد، الذي صدر منه جزأين، إذ أن من أهدافه هدم كل الأصنام الأدبية المعروفة في ذلك العصر وعلى رأسها أحمد شوقي.[1]

وقد اجتمع هؤلاء على مدارسة الإبداع بمعايير نقدية تستهدف قضايا الأدب العربي العريق في المقام الاول، وتغوص في خباياه؛ إذ سلطوا الضوء على العديد من الشعراء خاصة، وقاموا بنقد أشعارهم نقدا موضوعيا، ومن الشعراء الذين أقام عليه نقاد جماعة الديوان أرائهم النقدية نجد : ابن الرومي ، البحتري ، أبو نواس ، المتنبي ، و كذلك حافظ و شوقي.

2. 2- مفاهيم الشعر لدى جماعة الديوان:

نظرت جماعة الديوان إلى الشعر نظرة كلية، و لم تهمل جانبا من جوانبه أو تغلّب جانبا على آخر، وهذه النظرة الكلية والشاملة جعلتها تحيط إحاطة كلية بشعر الشاعر

المدروس، وبذلك تحقق الغاية من وراء كل دراسة، و" اهتمت جماعة الديوان بالمضمون تارة و بالشكل تارة أخرى في دراستها النقدية و لا غرابة في هذا فقد أعلنت دائما أن الشعر تعبير جميل عن شعور صادق "[2]، فالشعر هو ائتلاف عديد العناصر تشكل في مجموعها الإطار العام للشعرية.

فجاءت جماعة الديوان "بأفكار جديدة عن الشعر، وجوهره، وقيمته، فعندهم أن للشعر مقومات عديدة أهمها: أن يتغلغل ذلك الشعر بعيدا في النفس، ويستقي إلهامه من التجربة الإنسانية، وعلى الشعراء أن يبحثوا عن الجوهري في الأشياء، ويهملوا كمبدأ أساسي شعر المناسبات والأحداث العامة"[3]، وهذا ما جعل جماعة الديوان يجتهدون في تعريف الشعر؛ "وقد بين العقاد فهمه للشعر على أساسين هما: الحس الصادق، والقدرة على نقله، ويرى كذلك أن سوء فهم الشعر هو الذي صرف الشعراء إلى الأغراض الوضيعة، والكلف المفرد بالمحسنات البديعية وغيرها من ضروب التزييف، لأن الشعر حقيقة الحقائق، ولب اللباب، والجوهر الصميم من كل ما له ظاهر في متناول الحواس والعقول، فهو سلطان متربع في عرش النفس يخلع الحلل على كل سانحة تمثل بين يديه"[4].

وهذه الصفة أصبحت ملازمة للشعر عند المدرسة ؛لأنها ترى بأن الشعور الصادق هو المقوم الأساس للشعر،و ما دون ذلك فهو أمر سطحي فما خرج عن الشعور الصادق فهو عند مدرسة الديوان ليس بشعر ؛لأن الشعر أساسة الصدق ،وهذا يساعدها في دراسة الشعر دراسة شمولية " و هذا الاعتبار وحده كان من شأنه أن يفرض عليها أن لاتُهمل أحد الجانبين من الآثار التي تدرسها ،وقد فعلت، ولكنها فعلت شيئا آخر أهم من هذا وهو محاولة تحديد الصلة التي تربط بين الأثر و بين نفس صاحبه ،وبهذا تكون قد اجتهدت فعلا في أن تحدد سمات كل شاعر درسته. "[5]

كما أن دراسة الجانبين ،الشكل لوحده بطريقة خاصة ، والمضمون كذلك لوحده و بالطريقة الخاصة لدراسته ،فهذه الدراسة تساعدها و تسهّل عليها كيفية الدراسة ،وبخاصة العلاقة التي تربط النص بصاحبه .أي نفسية الشاعر،ومدى أثرها ،إيجابا أو سلبا في المنتوج الشعري للشاعر ذاته ؛لأن معرف الصلة بين النص و نفسية صاحبه يوسع زوايا الدراسة والعلاقة تتغير في كل كتابة ،فعلاقة الشاعر بنصه الأول تختلف عن علاقته بالنص الثاني و الثالث و العاشر ، وهذا الاختلاف هو الذي يوسع زاوية الرؤية النقدية لدى جماعة الديوان.

تميل مدرسة الديوان إلى الحياة الناطقة ،وهذا ما يؤكد كلام المازني الذي ينظر إلى الطبيعة كحقائق تنبض بالحياة ،مما يجعل الساكن نابضا ونشطا ساعيا إلى الأمام ،وهذا دور الشاعر الحقيقي الذي يبعث الحياة في كل شيء ويبعث الحياة في الجماد الذي يجعل منه كيانا يحاوره ، " أن الشعر يدرب المرء على الاستماع بتدبر عظمة الجلال والأبد والحق، وإذا كان من الصعب إن نفصل بين هذه الغاية وغاية إيقاظ الحواس عند الإنسان ومشاعره، فإن مما لا شك فيه إن المرء إذا كان خامد الحواس، راكد المشاعر لا يفيد فيه تدريب ولا توعية"[6]، وهذا ما نلمسه من كلام الناقد الانجليزي وردزورث «إن الشعر انسياب تلقائي للمشاعر القوية، وأنه يصدر عن العواطف التي تستعاد في حالة سكينة وهناك يتم نوع من

التأمل في هذه المشاعر التي تختفي في تلك السكينة بالتدريج، وتحل مكانها عاطفة قريبة من تلك العواطف الأولى التي كانت موجودة قبل عملية التأمل هذه، حيث تحتل العاطفة الأخيرة الذهن بالفعل، وفي مثل تلك الحالة تبدأ كتابة الشعر العظيم عادة»[7]. فالعاطفة لها دورها في بناء خصوصية الشعر الذوقية.

ويؤكد لنا بأن الإنسان كائن اجتماعي لا بد له من شريك و محاور ،فالحياة في نظرهم هي الحركة و النشاط والكلام و الاستمرار ،أما الصمت فيمثل عندهم التوقف ،وكأنه يمثل النهاية " فالطبيعة ذات روح وذاكرة و إرادة كما قال المازني و هي مدينة لهذا كله إلى قدرة الشاعر على تحريك الجامد و بعث النشاط فيه حتى يصبح نموذجا فعّالا يبعث بدوره الحياة و النشاط في الآخرين ." [8]

هكذا كانت نظرتهم إلى الشعر والشاعر والطبيعة ، ومن خلال نظرتهم الشاملة للعناصر الثلاثة، فهم يقدسون نبض الحياة الذي ينموا ويبقى مع هذا الثلاثي ؛لأن هذه العناصر إن بقيت مجتمعه، فهي ستنقل الحياة من حالتي الركود و الجمود إلى حالتي النشاط و الحيوية ، وهنا يكمن دور الشاعر العظيم ودور شعره الأصيل ، الذي يعبر تعبيرا صادقا عن حقائق ولب الأشياء ، ليصبح هذا التعبير ماءا جاريا ينعش الأرض العطشى ، فتصبح خصبة بعدما كانت بورا ، فالماء كان راكدا ، وفي ركوده موت للطبيعة وموت للحياة ، وهو ما ذكره الإمام الشافعي:

إنّي رَأيتُ وُقوفَ المَـاء يُفسدُه ... إن سَاحَ طابَ و إن لم يَجر لم يَطب[9]

إن الشاعر حين يلتفت إلى الطبيعة ويعبّر عنها ،يصبح مثل هذا الماء الجاري ،فكل منهما يغمر الطبيعة فيبهجها ،ويُنطق الصمت فيها ،فيجعله بلمسته الفنية حيّا ،وكذلك الماء يجعل الجامد مثمرا مزهرا ،وهدف الشاعر الأسمى ،هو بث الحياة أولا وأخيرا في الساكن وتدعيم هذه الحياة ،وتغذيتها في المتحركات ؛لأن المازني يرى "...أن ابن الرومي اهتم بالطبيعة كل هذا الاهتمام لا على أنها غاية في ذاتها بل باعتبارها وسيلة لتحقيق شيء أسمى من الطبيعة و من الشعر معا و هذا الشيء الأسمى هو الحياة بأوسع معانيها ..." [10] وأنبل صورها ،فالطبيعة كالشعر،فهما وسيلة توصلنا إلى غاية عظيمة ،وهذه الغاية يناشدها كل كائن حي ويتشبث بها ؛ لأن الحياة أعظم و أجل نعمة أنعم الله بها علينا و على كل الكائنات .

فالشاعر حينما يصف الطبيعة بصدق ، فهو يُحببنا فيها وبذلك يدفعنا لحب غاية أعظم وهي الحياة ، وجماعة الديوان تصيب حينما تسقط الشعر المصنوع ؛لأنه فاقد الحس الفني و الإحساس الروحي لقائله و يميل عن الصدق ،وبذلك فهو يبقى سطحيا لا يرقى إلى مستوى الشعر الصادق ،الذي يدخل الأعماق مباشرة ؛لأنه نابع أيضا من الأعماق .

والشعر المصنوع أجوف لا شعرية فيه ،فهو لا يثير العواطف ،ولا يقدم لنا معنى نستفيد منه "...فالمازني و صاحباه يرفضون كل شعر لا يعتمد على الإحساس والروح والمشاعر و لكنهم يشترطون في ذات الوقت أن يتحكم الشاعر في مشاعره و تجربته حتى يشكل منها جميعا شيئا لا يتناقض مع حقائق الحياة اليومية ." [11]، فالشاعر إذا أراد أن يكتب شيئا له قيمة عليه أن يغذيه بروحه ويكتبه بدماء قلبه لا أن يكتب بمداد قلمه.

والكتابة من أجل الكتابة هي في واقع الأمر خيانة لإحساس الشاعر، وخيانة لشعوره فالشعر الفاقد للإحساس والشعور لا يعتد به شعرا، وهو مجرد كلام عادي لا تأثير له؛ "جماعة الديوان – إ ذا– ترى الأدب تعبيرا عن الحياة ، وتلاحظ تلازما بين الاثنين في الواقع ،كما تحدد رسالة للأدب تتمثل في القدرة على السمو بالإنسان روحيا و نفسيا و عقليا و تطالب بالحرية الفنية للأدب ؛لأن هذه الحرية هي التي تمكنه من إبرار ميزاته النفسية الخاصة و تسمح له بوضع عبقريته و إن كانت له عبقرية في خدمة النوع البشرى كافة "[12]

إن الأدب يسمو بالإنسان روحيا و نفسيا و عقليا ،فهو يحمل رسالة عظيمة وهي رسالة السمو والرفعة ،لذلك فمن يجدر به حمل هذه الرسالة يجدر به أن يكون صادقا و حرا في أفكاره وفي أقواله ، ويكون سيّد نفسه ،حتى يصبح مبدعا خلاقا، قادرا على التعبير و قادرا على بث الحياة في الجامد .

يرى عبد الرحمن شكري أن الأصول الفنية في البناء الشعري هي من حيث قدرتها على نقل اهتزازات الشعراء، ومنحها قوة التأثير في المتلقين، فرأى أن أصول الشعر ثلاثة: العاطفة والخيال والذوق، ومن خلال المزج المكتمل بين هذه العناصر يخرج الشعر[13]. ومن هنا يتضح أن شكري حدد أصول الشعر عنده في ثلاثة عناصر من عاطفة وخيال وذوق، ورأى أن لهذه العناصر تركيبة فريدة، إذا امتزجت مع بعضها البعض، لتولد لنا شعرا رفيعا يرقى إلى مستوى الإنسان ويقع في نفسه.

ومن القضايا التي استلهمتها أقلام جماعة الديوان اللغة الشعرية؛ إذ ثار أعضاؤها على ما يسمى لغة الشعر أو القاموس الشعري، يقول المازني:" فإذا صح ما نذهب إليه من الرأي يعني رأيه في غاية الشعر التي هي السمو بالإنسان إلى مرتبطة لا تبلغه إياها غرائزه الساذجة إستوجب ذلك ألا تكون لغة الشعر كلغة الناس بل لغة تصلح لهذه الأفراد السماوية التي تخرج منها"[14]، وإنما يقابل بين اللغة الشعرية وبين لغات الناس، وهذا يخفف من تحمسه للغة الشعر، ويجعله يقترب من موقف صاحبيه في هذه القضية، فهو يقف موقفا مماثلا من اللغة، فيرى بأنها قاصرة عن التعبير عما يختلج في نفوسنا، فنادى جماعة الديوان باستخدام معجم لغوي آخر، يستعمل في المجتمع والحياة، ليقرب العمل الشعري من حركة العصر وتأمل الفكر وإثارة الوجدان[15]. فالشاعر الحقيقي هو من يشعر بجوهر الأشياء، ويكشف عن صلتها بالحياة وصلة الحياة بها.

3- مرتكزات الشعر عند جمال الدين بن الشيخ:

يعد كتاب "الشعريّة العربيّة" لجمال الدين بن الشيخ من المؤلفات النقدية الهامة، يعتد به في الدراسات والبحوث المختلفة، وهو كتاب ألف باللغة الفرنسية وترجمه محمد الوالي ومبارك حنون ومحمد أوراغ، هذا المؤلف الذي يحوي على فصول كثيرة، تناول فيها الناقد جملة القضايا المتعلة بجوهر الشعر العربي، وخصوصياته الفنية وتميزه الإبداعي، ومن جملة القضايا التي طرحها ما تعلق بالشعر ومرتكزاته، ومقومات الشاعر المبدع، ومسالك الشعر وعناصره،

3. 1- مصادر الإبداع الشعري لدى الشاعر الكبير:

تكلم " جمال الدين بن الشيخ" عن الشاعر في كثير من المواقف ،و قدم للقارئ مفاتيح عديدة ، و أول مفتاح يقدمه للمتلقي كي يصبح شاعرا فحلا و حقيقيا ما جاء به من نصائح عديدة و متنوعة ، يرشد من خلالها كلَّ قارئ ، و كلَّ متذوق ، و كل أديب ، و كل شاعر إنه باختصار أديب و ناقد ، عرف طريق النقد و سلكه بثبات ، كما عرف قبل ذلك طريق الأدب و أبدع فيه ، و يحثنا نحن اليوم على الإبداع ، و الخوض في غماره بسلاح المعرفة و القراءة الجادة و المثمرة و السير بثبات ما دمنا متمسكين بتراثنا و عاداتنا ، و متمسكين أكثر بدستورنا الذي لا نملك دستورا غيره ، إنه القرآن الكريم ، و الذي يراه المقوم الأول و الأساس في العملية الشعرية حين يقول : « إن شاعر المستقبل سيلقن في الكتّاب بالإضافة إلى مفاهيم أولية مختلفة ، معرفة القرآن أساسا بعد حفظه عن ظهر قلب ، هذا حدث جوهري . فالقرآن هو التربة الخصبة و المخصبة التي ستغذي الفكر دائما . إنه يرسخ في الذهن حاسة اللغة العربية التي لا تقبل التجاوز ،و يوفر رصيدا معجميا لا ينضب و يثبت أسلوبه ، و يشكل حقلا استعاريا ، و يقدم صيغا مسبوكة، إنه باختصار يقدم البنيات الذهنية ويحدد كيفيات التفكير التي لن تفارق الشاعر أبدا.»[16]

نوه جمال الدين بن شيخ بأهمية تأثير القرآن الكريم على صناعة الشعر في الثقافة العربية الإسلامية؛ لأن القرآن يعد «التربة الخصبة والمخصبة التي ستغذي الفكر دائما.إنهيرسخ في الذهن حاسة اللغة العربية التي لا تقبل التجاوز، ويوفر رصيدا معجميا لا ينضب، ويثبت أسلوبية، ويشكل حقلا استعاريا، ويقدم صيغا مسبوكة.إنه باختصار يقوم البنيات الذهنية، ويحدد كيفيات التفكير التي لن تفارق الشاعر أبدا.ومهما كان استغلاله لهذه المادة من النصوص وتعمقه فيها ضعيفا، فإنه سيظل متوفرا على أرصدة ضخمة مختزنة بشكل نهائي في ذاكرته، وهذا شرط لممارسة فنه، وهو شرط لا يقوم شيء بدونه»[17]، فالشاعر المبدع لا يستغني عن الفيض الغزير الذي يمده به القرآن الكريم، دون إغفال ما يقدمه من توجيهات تكوينية في التربية الخلقية، حيث يتسنى للشاعر أن يغمر قصائده بما يلزم من المعارف الدينية والثقافية منه.

فالشاعر الكبير في نظر جمال الدين بن الشيخ ، هو الذي بمجرد أن يتعلم أبجديات القراءة والكتابة ، يتمسك بالقرآن الكريم ، و يلازمه ملازمة تجعله يحفظه حفظا تاما ، و كذلك الاستماع إليه حينما يقرأ ،فالاستماع الجيد يدرب حاسة الذوق مع الحفظ السابق ويصقل بذلك موهبة الشاعر ، و يجعل اللغة العربية سليمة على لسان من ينطق بها ، وفي غير لحن، و هذا أمر عظيم يحتاجه الشاعر ؛لأنه يعطيه الثقة بالنفس و الجرأة على قراءة الشعر و ارتجاله دونما رهبة و لا تردد.

إن هذه الأمور كلها تنمي رصيد الشاعر نفسيا و اجتماعيا و ثقافيا و عقليا ، فهي تعطيه الاتزان النفسي و الثقة بها دونما غلو و لا مغالاة ، و تجعل ذهنه صافيا يسجل كل ما يسمعه ، و يسهل عليه الفهم ، و كذلك تزيد من رصيده الثقافي و المعرفي ، و يصل بعد ذلك إلى إنتاج شعر عظيم و يحقق الشعرية في جل شعره . إن لم نقل في كله.

و إذا أراد الشاعر بأن يبقى مستواه الأدبي عظيما ، و عطاؤه الشعري كبيرا ، و لا تخونه الموهبة، و لا الذاكرة ، عليه في هذه الحالة ،بل « يجب على الشاعر أن يتشبّع بآثار الأساتذة الكبار ، ويتحكّم في معجمهم ، و يحفظ تنوعات صورهم الأسلوبية و باختصار ينبغي له أن يملا فكره بأشعارهم .»[18]،ويبقى الشاعر في حركية متواصلة و مستمرة في القراءة و التأمل و التفسير و الفهم والشرح، و أيضا النقد دائما و فكره في سجال مع نفسه ،فالعودة إلى إنتاج أساتذة و معلمينا من شأنه أن يعزز ذخيرتنا ، و كذلك يجددها و ينميها و معرفة الإنسان تبقى قاصرة ، لذلك على الشاعر أن يغرف من أشعار السابقين خاصة ، لأنهم أكثر منه خبرة بالحياة ، و لهم تجارب تفوق تجاربه ، وربما أشعار أفضل بكثير من شعره ، فهو في حاجة لتلك الزيادة ، لأنها أفضل معين ، و أفضل سند لموهبته الشعرية .

3. 2- أهمية الموهبة الفنية :

خص جمال الدين بن الشيخ حديثه عن الموهبة؛ وأعطاها أهمية كبيرة في حياة الشاعر ، و في حياة شعره وكأنها في نظره هي اللبنة و النواة الأساس في ظهور شعريته و تفجيرها ، فالموهبة حينما تجد الرعاية و الاهتمام ،فبمقدور الشاعر أن يصل إلى أعلى المراتب في قوله للشعر ، وكذلك يصبح الشعر الصادر عن موهبة مقبولا في كل زمان وفي أي مكان ، فكل من يسمعه يتأثر ويعمل به ،فهو يحفّز النفس ؛لأنه يسري مع الدماء ،و« لهذا فإن الشعراء الموهوبين بعفوية اللغة هذه مشهورون ، بدءا من الحارث بن حلزة إلى الفرزدق ، و خصوصا أبو نواس الذي بمقدوره أن يفجر طاقته في أي لحظة ، و في أي موضع.»[19]

إن الموهبة هي القاعدة التي يرتكز ،بل يُبنى عليها مستقبل الشاعر ، فإن عرف الشاعر كيف ينميها ، و كيف يرعاها بالعمل ،وبما يناسبها و يتماشى معها ، و ترك ما ينافيها و يتعارض معها ، فلا يرغم نفسه على الخوض في مجال لا ترغب فيه ، بل يترك لذاته الحرية في الإقبال على الأمور أو النفور منها، فالشاعر حينما يريد كتابة أو قول الشعر لا بد عليه أن يملأ نفسه أولا بكل مقومات الإبداع ، لذلك فإن أراد كتابة الشعر وجد الزاد و الذخيرة في نفسه، و « إن الخطيب القادر على ارتجال خطبة ، و الشاعر الذي يعبئ كل إمكانياته ليشغلها حين يريد ، يثيران الإعجاب معا ؛لأنهما يؤديان واجبا و يستجيبان لتطلع.»[20]

إن الحالة التي يصل إليها الخطيب ، و هذا أمر متوقع منه ، لأن الخطيب أصلا يعتمد على الارتجال ، أما في الشعر فالأمر يختلف فليس الشاعر مرغما على الارتجال ، و لكن يُفضل أن تكون له القدرة العظيمة على قول الشاعر في الوقت الذي يُطلب منه ، و هذه المرحلة يصلها إلا الشاعر الذي عبأ كل إمكانياته ، و جمع كل مقدوراته العقلية و النفسية ، ليفجر كل ذلك في قصيدة شعرية تذهل المتلقي ، و تهز لب القارئ و المستمع ، و هذه الدرجة العالية من الشعرية لا يرقى إليها إلا صاحب الموهبة ، و صاحب القراءة المتواصلة و الجادة لكل ما هو قديم ، ولكل ما هو جديد . أي أنه ملم بأشعار العرب قديمها وحديثها ، و له اطلاع واسع وعلم شاسع ، و دراية كبيرة بخبايا الشعر و أغراضه فهما و حفظا ، هذا هو

الشاعر الحقيقي ، الذي يعتلي عرش الإبداع الشعري ، و يؤثر في أكبر الشعراء ، و ينال إعجاب النقاد و الدارسين.

3. 3- الكفاءة الشعرية :

إنّ الكثير منّا يقول: الشعر ، و الكثير منا أيضا يتمنى أن يُلقّب بالشاعر ، و لكن أيُّ شاعر سيكون يا ترى، هل يكون في الطبقة الأولى ،أم في الثانية ،أم في الثالثة ،أم في الرابعة . أم أنه بعيد عن هذه الطبقات في التصنيف ، هو سؤال محير و محرج في بعض الأحيان .

فالشاعر الذي يريد و يرغب بأن تكون هذه الصفة لصيقة به ، و من حقه ، لا بد أن تكون له كفاءة شعرية ، والكفاءة الشعرية هي : استعداد فطري . أي موهبة إضافة إلى دراية الشاعر الذهنية بكل حيثيات الحياة و تقلباتها ، و أيضا امتلاك حسّ فني ، و ذكاء حاد و إجادة في التصوير و تكييف الأشياء و النظر إليها من زاوية فريدة خاصّة به وحده لا يشاركه أحد فيها ،و« إنّ الكفاءة الشعرية هي ملكة ، و استعداد ثابت ، و كيفية وجود على أن التردد الدائم على القدماء هو أفضل وسيلة لخلق مجموع الاستجابات السريعة الضامنة للخلق»[21]؛ الاستعداد الفني الذي يسكن هاجس المبدع، ويرواده له أهميته في الكتابة الشعرية.

إن الشاعر الذي يحلم بأن يكون في يوم ما قادرا على الخلق و الإبداع ، لا بد عليه أن يكون مهيأ لكل عارض و لكل مشكلة ، و تكون له استجابات فورية على كل ما يصادفه في هذه الحياة ؛لأن استعداده الفطري يجعله دائما متأهبا ومتيقظا يعاين كل الأمور معاينة عقلية و نفسية و يقدّم الحلول ، فهو يساير الوجود ؛لأن إدراكه يتفوق على كل عارض . «فإن الحب و اللذة و الانتصار و الموت و الوجود ، ستكون للشاعر استجابات و كيفية وجود يمليها إدراكه نفسه لهذه الأشياء .»[22]،و إدراكه لحقيقة الأشياء هو الذي يحقق له ذاته المتزنة ، ذاته الهادئة القوية الصامدة و المتفوقة ،و« إن حساسية الشاعر و طبيعة علاقاته مع الواقع تثبت إذن طرائق الإبداع.»[23]،

ويرى بن شيخ أن الشاعر الجيد هو الذي يتطلع إلى تحقيق التفرد والتمرس في غرض شعري معين يشتهر به ويبدع فيه، فالشعراء«لا يكتفون طبعا بتلقي الأوامر الكفيلة بتحريك آلية جهاز.بل ينشدون نمط إنتاج ينفصل فيه المبدع عن حوافز أو يستبطنها بصورة يقع تماثلها مع كيانه الخاص وإرجاعها حتى تعبر عن كيانه الخاص»[24]، فتحقيق الإبداع هي الغاية الأسمى في الكيان الشعري ؛لأن الشاعر حينما يبدع لن يرضى عن نفسه فحسب ،بل سيُرضي كل من يسمعه ،وكل من يقرأ له وسيرضى عنه النقاد الكبار وفحول الشعراء ،حينها فقط يحسّ بأنه شاعر عظيم ، وله كفاءة شعرية عالية وأنّه استحق لقب شاعر عن جدارة ،و سيكون شعره كله ينبض بالشعرية التي يسعى كل شاعر إلى الوصول إليها .

و قد يتعثر الشاعر بسبب ما ، و لا يصل إلى الغاية التي يحلم بالوصول إليها كل شاعر ، و قد تتعدد الأسباب ، و يتكلم صلاح عبد الصبور في هذا الأمر قائلا : « إنّ إخفاق القصيد قد يكون لقوة العواطف واحتدامها مع ضعف الشاعر ، و إن توقف الشاعر عن إتمام قصيدته قد يكون لأنه...لم يستطع أن ينسلخ عن ذاته بحيث يدع القصيدة تسيطر عليه أو لضعف إحساسه بما ورد إليه من خاطر.»[25]

فجمال الدين بن الشيخ يبين كيف يصل الشاعر إلى ذروة الإبداع الشعري ، و صلاح عبد الصبور يُظهر و يُبرز الأسباب التي تجعل الشاعر يتعثر و لا يصل إلى قمة الإبداع الشعري ، فهما يلتقيان في سبب جوهري ، و هذا السبب يتمثل في إحساس الشاعر أو حساسيته ،فإن ضعفت لم يصل و إن قويت وصل ؛لأن إدراك الشاعر بالواقع المحيط به ، و تكييف كل الحالات التي يمر بها تكييفا سليما مبنيا على وعي تام ، و إدراك عام لما يجري من حوله من شأنهما أن يعززا مقدرته ، التي يفجرها في الوقت المناسب ليقدم أجمل القصائد و أعذبها و أقواها.

وإن شعرية الخطاب ، وخاصة الشعري منه لا بد على الشاعر أن يضيف إليها عناصر من عنده هو كإنسان أولا ،وقد جرب و عايش و عاين الأمور ، و كشاعر بموهبته و إحساسه ، و كذلك خزينته المعبأة بأشعار أساتذته و أشعار الشعراء الآخرين، و بهذا يستطيع أن يصل إلى إبداع نصوص عالية المستوى ،من حيث المعنى و المبنى ، فالشاعر الذكي هو الذي يستطيع بلمحة خاطفة أن يلخّص قصة كاملة ، وفي بيت شعري واحد يجمع العديد من المتناقضات و المتشابهات ،فيغنيك هذا البيت عن قراءة صفحة كاملة عن موضوع معين .

فإذا ما حاولنا إسقاط هذه المميزات على الشعراء العرب نجد الكثير منهم أهلا لهذه الصفات ،ونقدّم "المتنبي" الذي نجد بأنه يستحق أن يكون شاعرا عظيما ،وشعره يؤكد ذلك، و سنأخذ أبياتا من قصيدته المشهورة التي عنوانها " على قدر أهل العزم" حين يقول :

عَلى قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تأتي العَزائِمُ ... وَتأتي علَى قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ
وَتَعْظُمُ في عَينِ الصّغيرِ صغارُها ... وَتَصْغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ
يُكَلِّفُ سيفُ الدّوْلَةِ الجيشَ هَمّهُ ... وَقد عَجزَتْ عنهُ الجيوشُ الخضارِمُ
وَيَطْلُبُ عندَ النّاسِ ما عندَ نفسه ... وَذلكَ مالا تَدّعيهِ الضّرَاغِمُ
هَل الحَدَثُ الحَمراءُ تعرِفُ لوْنَها ... وَتَعْلَمُ أيُّ السّاقِيَيْنِ الغَمَائِمُ
سَقَتْها الغَمَامُ الغُرُّ قَبْلَ نُزُولِهِ ... فَلَمّا دَنَا مِنها سَقَتها الجَماجِمُ
بنَاهَا فأعْلى وَالقَنَا يَقْرَعُ القَنَا ... وَمَوْجُ المَنَايَا حَوْلَها مُتَلاطِمُ[26]

إن في هذه الأبيات تصويرا بديعا ، و قدرة كبيرة من الشاعر على الوصف ، و جمعا للعديد من الصور ، وتحكما كبيرا في الإيقاع الداخلي و الخارجي للقصيدة ، فعملت الأبيات كلها عملا موحدا ،و صارت لحمة واحدة ،وما زاد لهذه الأبيات شعرية في نظرنا هذه الحوارية القائمة بين الضميرين "هي و هو" ، فهو سجال شيق و ممتع حيث تكرر كل ضمير حوالي 20 مرة ،فهي مبنية على الأسئلة و الأجوبة ، وكلما سألت هي أجاب هو و العكس صحيح ، فجاء البناء محكما ، و استطاع الشاعر بفضل خبرته وزاده اللغوي أن يرسم لوحة شعرية بهذه الأبيات المبنية على السجال القائم بين الضميرين المذكورين، كما يقول و يبدع في بيت آخر من القصيدة نفسها .:

نثرتَهم فوقَ الأُحَيدب كلّه ... كمَا نُثرت فوقَ العروس الدَّراهم[27]

إن ما زاد البيت قوة و شاعرية ،هذا التصوير ،وهذه التشبيهات ،حين شبّه القتلى المتناثرين فوق الجبل (الأحيدب) بالدراهم الملقاة على العروس في ليلة زفافها ؛لأن سيف الدولة حين نثر الجثث لا يهمه عددها و لا أماكنها ،مثله مثل الذي يرمي النقود فوق العروس فلا يهمه كذلك عدد النقود ، و لا مكان سقوطها ، وهذا يدل على الكثرة ، وعدم الاكتراث ،وكذلك يدلّ على عظمة سيف الدولة ، وهذا مشهد أبدع المتنبي في تصويره ، فزاد بعدا و دلالة و جمالا و قوة و إيحاءا .يرى جمال الدين بن الشيخ شاعرية المتنبي بأنها شعرية منبعثة من تآلف عدة عناصر ، وأهمها البراعة في التصوير الخيالي ، وذلك بتكثيف الصور الشعرية.

وإنّ أمرا كهذا لا يصعب على شاعر كالمتنبي ،لأن حياته كلها تجارب ،جالس الملوك والأمراء ،ويخاطبهم بطريقته الخاصة ،وهو واقف ، وهذا دليل على ثقته بنفسه ،وفي شعره وفي خياله الخصب والثري ،"ولعلّ اهتمام جمال الدين بن الشيخ بالمتخيل ومصادره في الثقافة والفكر العربيين ، هو اهتمام يجد مسوغاته في ضرورة تأسيس نقد عربي دائم وليس بعرض، يؤكد أن التخييل ،هو نوع من المعراج ،وتشخيص لشيء غير مرئي ،فلا يمكن لأي عصر أن يعيش دون متخيل،..."[28] ، وتركيز ، أو اهتمام جمال الدين بن الشيخ بالمتخيل ؛لأنه عملية تتم في الذهن عند شروده .أي أن الشاعر حينها لا يكون واعيا ،وهذا سبب رئيس من الأسباب الداعية ،والمساعدة على الإبداع الشعري الحقيقي.

خاتمة:

من خلال ما سبق فغن الدراسات النقدية العربية عالجت موضوع الشعر، وأوجدت له مسوغاته الفنية التي تمكن منها الشعراء العرب قديما وحديثا، إلا ان هناك فروقات في وجوهات النظر بين جماعة الديوان ممثلة في المازني والعقاد وشكري، وبين ما جادت به قريحة الناقد الفذ جمال الدين بن الشيخ في مدونته النقدية المشهورة" الشعرية العربية" فإن كان هؤلاء قد ركزوا جهدهم على تبيين مقاصد الشعر، ومصادره، وغاياته ووسائطه، وحاولوا ان يكتشفوا عمق الظاهرة الشعرية المحاكية للموضوع الشعري، ورسموا معالم الشعر الوجدانية، ونوهوا بأهمية الخيال والتصوير الشعري الغير مبتذل، وتكلموا مطولا عن خصوصيات اللغة الشعرية العليا المتفردة والمتميزة في عطاءاتها.

أما جمال الدين بن الشيخ فإنه يرسم معالم الشعر على تقنيات فنية مستلهمة من الشعر نفسه، حين يتفرد المبدع بموهبته الإبداعية، إذ ان الإبداع الشعري هو ضارب في الخصوصية الفنية التي اوجدتها شخصية الشاعر المطبوع وليس المصنوع، ومهما كان لأليات الخيال واللغة والأسلوب دور فيه، فإن الكفايات الفنية الشعرية مستلهمة من الفن الشعري ذاته.

الهوامش:

[1]- ينظر، محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، ط 2، 2006، ص81.

[2]- محمد مصايف : جماعة الديوان في النقد ، دراسة جامعية في مفهوم النقد و الشعر عند (شكري و العقاد و المازني) الشركة الوطنية للمنشور و التوزيع ، ط2 ، الجزائر ، 1982 ، ص 124 .
[3]- سلمى خضر الجيوسي :الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ترجمة :عبد الواحد لؤلؤة، ص211.
[4]- عبد الرحمان عبد الحميد علي :النقد الأدبي بين الحداثة والتقليد، دار الكتاب الحديث، د ط، 2005 ،ص 52.
[5]- محمد مصايف : جماعة الديوان في النقد :ص 124 .
[6] -- ينظر: عبد القادر المازني، الشعر غاياته ووسائطه، دار الفكر اللبناني بيروت، ط 1، 1990، ص239.
[7] - إبراهيم الحاوي، حركة النقد الحديث والمعاصر في الشعر العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص58.
[8]- محمد مصايف : جماعة الديوان في النقد ، ص 126 .
[9] - ديوان أبي عبد الله محمد ابن إدريس الشافعي : دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، عين مليلة ، الجزائر،2011 ص 13 .
[10]- محمد مصايف : جماعة الديوان في النقد ، ص 125 ، 126 .
[11] - محمد مصايف : جماعة الديوان في النقد ، ص 126 .
[12]- المجرع نفسه : ص 207 .
[13] - عبد الرحمان عبد الحميد علي :النقد الأدبي بين الحداثة والتقليد،ص 51.
[14] - إبراهيم عبد القادر المازني، الشعر غاياته ووسائطه، ص 345.
[15] - سيد سليمان سادات شكور، جماعة الديوان، التقدم الأدبي والنقدي في القرن العشرين، مجلة إضاءات نقدية،السنة الأولى، العدد الثاني 2011،ص6 .
[16]- جمال الدين بن الشيخ: الشعرية العربية ، دار بقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، المغرب،1996،ص96
[17] - المرجع السابق، ص96.
[18] - المرجع نفسه : ص98
[19]- السابق،ص112
[20]- نفسه : ص117
[21] - جمال الدين بن الشيخ: الشعرية العربية، ص 103
2 المرجع السابق :ص102
[23]- المرجع السابق : ص 103
[24] - المرجع نفسه، ص111.
[25] - صلاح عبد الصبور: حياتي في الشعر، ص 16
[26] - ديوان المتنبي : ص 317
[27]- ديوان المتنبي : ص 319
[28] - شعيب حليفي: شعرية الرواية الفانتاستيكية ،الدار العربية ناشرون ،ط1 ،بيروت ،لبنان ،2009 ،ص10

المصادر والمراجع :

1- إبراهيم الحاوي، حركة النقد الحديث والمعاصر في الشعر العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1984

2- جمال الدين بن الشيخ: الشعرية العربية ، دار بقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، المغرب،1996.

3- عبد الرحمان عبد الحميد علي :النقد الأدبي بين الحداثة والتقليد، دار الكتاب الحديث،الأردن، د ط، 2005 .

4- سلمى خضر الجيوسي، . الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ج 1 ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، القاهرة، ط2، 2007

5- صلاح عبد الصبور: حياتي في الشعر دار العودة ، بيروت، لبنان، 1977.

6- الشافعي أبي عبد الله محمد ابن إدريس، الديوان، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، عين مليلة ، الجزائر،2011 .

7- عبد القادر المازني، الشعر غاياته ووسائطه، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط 1، 1990.

8- المتنبي أبو الطيب، الديوان ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2008

9- محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، ط 2، 2006

10- محمد مصايف : جماعة الديوان في النقد ، دراسة جامعية في مفهوم النقد و الشعر عند (شكري و العقاد و المازني) الشركة الوطنية للمنشور و التوزيع ، ط2 ، الجزائر ، 1982.

11- شعيب حليفي: شعرية الرواية الفانتاستيكية ،الدار العربية ناشرون ،ط1 ،بيروت ،لبنان ،2009 .

المقالات:

1- سيد سليمان سادات شكور، جماعة الديوان، التقدم الأدبي والنقدي في القرن العشرين، مجلة إضاءات نقدية، السنة الأولى، العدد الثاني 2011،